



لمناسبة مقتل العقيد حسان الشيخ برصاص سليمان الأسد، والوقفة الاحتجاجية التي تلتـه في مدينة اللاذقية، شهدت وسائل التواصل الاجتماعي جدلاً سورياً حول مغزى الاحتجاجات والطريقة التي ينبغي للمعارضة أن تتعاطـى بها معها. جدل يمكن القول أنه متـجد، إذ ينبع خلافاً قديماً بين طرفين ينسبان نفسـيـهما إلى الثورة، واحدـ منها يرى عزوف معاـسـكـرـ الموالـاةـ عنـ الثـورـةـ شأنـاً طائـفـياً يـسـتحـيلـ تـغـيـيرـهـ، والـآخـرـ يـرمـيـ المسـؤـولـيـةـ عـلـىـ المـعـارـضـةـ الـتـيـ لمـ تـحسـنـ تقديمـ خطـابـ يـطمـئـنـ مـعـاسـكـرـ الموالـاةـ.

يمكن القول أيضاً أن هذا الخلاف، جرياً على عادة خلافات أخرى معلنة، هو كنایة عن خلافات وحساسيات لا تُعلن صراحة من جانب الطرفين، ولا تُناقش بقصد تسويتها بمقدار ما يكون تقاذف الاتهامات في مناسبة جديدة سبِيلًا ليشدد كل طرف على الحساسيات المضمرة. فوق ذلك، بوجود معارضة يسهل النيل من أدائها ستملك الأخيرة جاذبية تحميلاها المسؤولية، الأمر الذي لجأت إليه قوى دولية سابقاً بقصد التعémية على المشاكل الحقيقة، أو على عدم نضج مقومات الحل. من الضروري التذكير بأن تلك القوى لم تنظر إليها كمعارضة وطنية جديرة باستلام السلطة، وأعلى ما وصلته قبول أحقيتها بالمشاركة مع النظام الذي يُنتظر منه تبديل رأسه.

الجدل الثوري السوري الأخير تجاهل الواقع كعادته، فأصحاب الوقفة الاحتجاجية في اللاذقية نزّهوا أنفسهم عن أية شبهة ثورية، سواء برفعهم صور رأس النظام أو بالإعلان عبر صفحات التواصل الاجتماعي عن أن تحركهم لا يلتقي أبداً مع «المعارضة الإرهابية»، ولا ينقض ولا عهم المستمر لبيت الأسد.

النظام لاقى أنصاره بالقبض على ابن الأسرة «الأرعن»، السلوك الذى رفضه عندما طالب أهالى درعا بمحاكمة عاطف نجيب (ابن خالة بشار الأسد)، بمعنى أنه كان وفياً هذه المرة لأدواته الطائفية، ولو على مضض، وحتى إذا أتى تصرفه الأخير بداعى الضعف الشديد فحسب.

إلا أن أهم ما يقفز عنه الجدل المتجدد هو لحظة الثورة، بصفتها أيضاً لحظة تأسيس لانقسام الحال، المعارضة وأداؤها شأن لاحق كذلك هي الحرب.

طوال أشهر من الطور السلمي والتظاهرات ومواجهتها بالوحشية المفرطة كان معسكر الموالاة يردد مقولات النظام عن الإرهابيين، وأكثر من هذا يصف سكان المناطق الثائرة بمختلف النعوت العنصرية متوعداً إياها بالإبادة والدمار. ما تجدر

مواجهته بصرامة، أن الثورة طرحت نفسها بديلاً وطنياً لوطن تبين عدم وجوده في الأصل، ولم يكن نصراً لها الكشفُ عن هذا الواقع، وبالطبع لم يكن نصراً للنظام الذي أسفَر عن وجهه كـ«ممثل» لقسم من السوريين ومحتل لمن تبقى منهم.

بداءً من لحظة التأسيس مرت تطورات مهمة، في مقدمها بروز العامل الخارجي، لكن ما تجب ملاحظته جيداً عدم ترhzج التموضعات الداخلية بين معسكري المعارضة والموالاة الأساسيين. فرضية استمالة جمهور إضافي إلى معسكر «الثورة» لا سند لها، بفعل لحظة التأسيس ويفعل تطورات الحرب بين الطرفين، ومنذ أكثر من ثلاث سنوات صار واضحاً أن ما يخسره النظام لن يصب مباشرة في خندق الثورة، وإن كان يصب في مسار نهايته. لدينا تجربتان حتى الآن تشيران إلى الخيار الثالث، تجربة «مشايخ الكرامة» لدى الدروز وتجربة الإدارة الذاتية الكردية، في كل من التجربتين انفكاكٌ ما عن النظام، وإعلان في المقابل عن عدم الذهاب مع المعارضة.

يجوز القول أن هاتين التجربتين نضجتا من بنور لحظة الانقسام ذاتها، فقسم من مشايخ الدروز عمل منذ البداية على مبدأ الحياد والنأي بالنفس كحل يحافظ على التماسك الداخلي ويحمي من بطش النظام. وعمل أصحاب الإدارة الذاتية الكردية مبكراً على إقصاء الشباب الكردي المشارك في الثورة، وصولاً إلى تكريس مبدأ التعامل مع قوات النظام أو فصائل المعارضة وفق ما تقتضيه كل حالة أو منطقة تنازع.

في السياق نفسه تأتي مسألة توقف الانشقاقات في صفوف مسوّلي النظام، وفي صفوف قواته، منذ ثلاث سنوات، ما يؤشر إلى أن غالبية الفاعلين حسمت موقفها في الصراع.

وإذا أخذنا في الاعتبار التأثيرات الخارجية، منذ جنيف قبل ثلاث سنوات صار واضحاً عدم وجود نية لإسقاط النظام عسكرياً، وإن عدم حافر مغادرة المركب الذي يُحرى تعويمه باستمرار، ثم تولت صفة الكيماوي تبديداً أي وهم من هذا القبيل.

تجذر الانقسام واستمراره لا يعنيان أن الأسد قدر الموالاة الأبدي، وإن كانا يعنيان تهافت المراهنة «الثورية» على تحول دراميكي طال انتظاره، وثبتت تهافت التطلع إليه بعد «التضحيات» التي قدمها الموالون. لن يتآكل معسكر الموالاة لمصلحة الثورة لأسباب عدة، هذا في أحسن حالاته تطلع شديد الرومانسية، أما أن تزداد التناقضات الداخلية ضمن صفوف الموالاة كلما عجز النظام عن الحسم فشأن مختلف تماماً، قد يصل بمساعدة خارجية إلى التضحية بالأسد بدل التضحية من أجله.

الخلاصة الأخيرة هي ما ينتظره الكثير من القوى الدولية والإقليمية، لوضع الحل السياسي على السكة المعدة له. بهذا المعنى، لا يخل الموالون أهل الثورة بعد الانضمام إليها، هم يدخلون القوى التي تريد منهم أن يكونوا نظاماً بمعزل عن العائلة الحاكمة. فرضية الحل السياسي مبنية أساساً على هذا الفصل، والجدل حول مصير الأسد مستمر بسبب عدم القدرة على إقامته، فلخلافه يهددون بأن رحيله سيعني تلقائياً انهيار النظام برمتة، الأمر الذي لا تريده الإدارة الأميركيّة تحديداً.

لقد هزم النظام فعلياً مُذ تبين فشله في مواجهة التظاهرات، وهُزمت الثورة كإطار وطني مُذ انكشفت هشاشة الوطنية السورية، أو عدم وجودها.

في هذا المناخ، التطور الوحيد الذي كان متاحاً هو تقديم الجماعات، على مختلف الأسس الإثنية والطائفية والمناطقية. وضمن مناخ الاحتراق الراهن، جريمة النظام الأكبر هي أن يوجه أحد منه بندقيته إلى جماعته، بل إلى مقاتل «بطل» لم يكن يتولى عن قتل «الأغيار»، لا تناقض في ذلك إلا من وجهاً من لا يقيم هذا التمييز الساطع بين الجماعتين. الجدل الثوري الذي يقفز عن الواقع، في أصدق حالاته رجبوبي بامتياز، وفي حالاته الأخرى يستعيض الثورة كناءةً عما لا يريد الإفصاح عنه.

الحياة اللندنية

المصادر: